

الدور التربوي والدعوي للمسجد أيام الثورة كمظهر من مظاهر البعد الديني الإسلامي لثورة نوفمبر المظفرة

أ. طوابة نور الدين
جامعة أدرار

لقد دخل الإسلام إلى الجزائر عن طريق جهود الفاتحين الأولين فاحتضنه أهل هذا البلد بقوة ومن ثم صار هو مصدر العطاء والتهذيب وبناء الشخصية الجزائرية العربية المسلمة، إلى أن جاء الاستعمار الفرنسي الذي بذل كل جهده للقضاء على هذا الدين وطمس معالمه ومؤسّساته، إذ لم تكن فرنسا عند دخولها إلى الجزائر تريد الاستيلاء على الثروات الطبيعية الموجودة فيها، بقدر ما كانت ترمي من وراء هذا الاحتلال إلى القضاء على الدين الإسلامي، ونشر المسيحية بالجزائر، وجعلها كيوابة تطلّ منها على قارة إفريقيا السمراء ومن أجل هذا كلّ قامت بالاستيلاء والمصادرة لكلّ الأوقاف الإسلامية التي كانت تقوم برعاية الشؤون الدينية والمساجد والتعليم الديني في الجزائر.

وهذا كلّ يدخل في الإطار العام لسياسة فرنسا التي أخذت على عاتقها مقاومة الإسلام والعربية في الجزائر، وأول شيء بدأت به؛ المساجد، فمنها ما أغلقتها ومنها ما هدمته ومنها ما حولته إلى ثكنات وكنائس، ولم تبق إلا المساجد التي تشرف عليها بنفسها ولكنها حرّمت على العلماء الوعظ فيها.

إلا أن أبناء الجزائر قاوموا وصمدوا في وجه كلّ المحاولات الاستعمارية لتنصير الجزائر المسلمة والقضاء على دينها ومساجدها ومدارسها، وبالتالي كان لهم الفضل في المحافظة على الشخصية الوطنية ومقوماتها الإسلامية.

ومن خلال هذه الديباجة ارتأيت أن أتطرق في مداخلتي هذه إلى مدى التأثير الديني ودوره في إعطاء ثورة التحرير بعدها الحضاري الإسلامي وذلك من خلال دور المسجد التربوي والدعوي في هذه المرحلة من تاريخ الجزائر المعاصرة، وهذا ضمن العناصر التالية:

1 - دور المساجد والزوايا في المحافظة على الشخصية الوطنية أيام الفترة الاستعمارية.

2 - دور المسجد في التعبئة الروحية ضد الاستعمار الفرنسي.

3 - دور المسجد في الحرب التحريرية الكبرى.

4 - التربية المسجدية لجيش التحرير الوطني.

تـــمـــيـــد:

لقد كانت معاناة المساجد أثناء الفترة الاستعمارية شديدة ومتنوعة، وذلك رغم المعاهدة التي أمضاها المحتلون مع الجزائر، والتي ادّعوا من خلالها بأن حركتهم تستهدف القضاء على الداي (الطاغية) فقط وأما غير ذلك من الممتلكات وقضايا

الأسرة والمساجد وأماكن العبادة فلا دخل لهم فيها، وستحترم بصفة نافذة، فهم ما جاعوا إلا لتحرير الجزائريين من الطغيان التركي¹.

إلا أنهم لم يراعوا أية حرمة لأوقاف المسلمين ومقدساتهم، ففي البداية كانوا يعتقدون على الملكيات الفردية، ويدنسون المساجد ثم انتقلوا بعد ذلك إلى تهديبها².

وعندما لم تنفع هذه الطريقة — طريقة الهدم — والتي تكون قد أخذت منهم وقتا طويلا وألّبت عليهم سكان البلد، انتقلوا إلى طريقة أخرى وهي غلق المساجد³، إلا أن طريقة غلق المساجد هذه لم تكن عزم الشعب الجزائري على فتح البعض منها، أو بناء مساجد أخرى.

ولما لم تشف هذه الطريقة غليل المستعمر في القضاء على هوية الشعب الجزائري وديانته انتقل إلى خطة أخرى محاولا بها تركيع الشعب الجزائري، وفصله عن دينه ألا وهي الاستيلاء على المساجد وتحويل البعض منها إلى كنائس تدقّ فيها النواقيس والأجراس إعلانا عن قيام دولة الصليب مكان دولة التوحيد.

1 - الحركة الوطنية: أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ط3، 1983م، 16/2.

2- تاريخ العالم الإسلامي، قارة إفريقيا: إسماعيل أحمد ياغي، محمود شاكر، دار المريخ الرياض، 1983م،

128/2.

3 - الاتجاه العربي الإسلامي ودوره في تحرير الجزائر: نبيل أحمد بلاسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب

1990م، ص 108.

ومن هذه المساجد المحوّلة على سبيل المثال لا الحصر جامع (كتشاوة) الذي حوّل إلى كاتيدرائيّة عظمى في العاصمة¹، كما حوّل جامع (بتشين) إلى كنيسة، وحوّلت مساجد أخرى إلى ثكنات لفرق الجيش الفرنسي² يأكلون فيها ويشربون ويطربون ويرتكبون الفواحش والمنكرات، وهذا ليس غريبا عليهم فهم لم يأتوا لهذه البقاع إلّا ليدنّسوا ما كان طاهرا فيها، وقد اعترف أحد رجالهم المرموقين بأفعالهم "الحضاريّة" في الجزائر إلّا وهو "الدوق دومال" (daumal) الوالي العام على الجزائر خلال الثمانينيّات من القرن التاسع عشر في تقرير له إلى حكومته في باريس قائلا: "لقد تركّزنا في الجزائر واستولينا على المعاهد العلميّة وحوّلناها إلى دكاكين أو ثكنات أو مرابط للخيل واستحوذنا على أوقاف المساجد والمعاهد"³.

ليس هذا فقط بل لقد ذهب المحتلون إلى أبعد من ذلك في إذلال أهل البلد المسلمين حتّى أنّهم باعوا بعض المساجد لليهود⁴.

وكانت النتيجة من هذه الأعمال التعسفيّة للاستعمار الفرنسيّ تجاه المساجد أنّها صارت تعدّ على أصابع اليد الواحدة بعد ما كانت قبل الاحتلال تعدّ بالمئات¹،

¹ - عيون البصائر: محمد البشير الإبراهيمي، دار المعارف القاهرة، 1963م ص 162.

² - دراسات في التربيّة الإسلاميّة: رابح تركي، المؤسسة الوطنيّة للكتاب الجزائر، ط2، 1987م ص 116.

³ - المجاهات الثقافيّة في الجزائر المستعمرة عام 1830م حتّى 1880 م: د. تورين، تقديم الشيخ بوعمران، مجلة الأصالة وزارة الشؤون الدينيّة ع 6 السنة الأولى، جانفي 1972م ص 118.

⁴ - الاتجاه العربي الإسلامي: نبيل أحمد بلاسي، ص 36.

وصار المسلمون وهم يعيشون في بلادهم لا يملكون سوى 166 مسجدا رغم أنهم يعدّون بالملايين، ويملك غيرهم من المسيحيين حوالي 327 كنيسة، ويملك اليهود 45 معبداً².

ولم تكتف السلطة الفرنسيّة بمحاربة المساجد بل حاربت كذلك التعليم المسجديّ وغلقت كلّ النوادي وقادت المعلمين إلى المحاكمة بتهمة التعليم بدون رخصة، حتّى ضاق الشيخ البشير الإبراهيمي - رحمه الله - بهذه الرخصة فقال عنها: "أهي رخصة تعليم أم غصة وعذاب أليم"³.

وقد نجم عن هذا القرار آثار سيئة على التعليم والمدارس والمساجد في الجزائر، حيث غلقت المساجد وشرّد الصبيان والصبيّات وغرّم الناس وزجّ بهم في السجون، وكذلك كان الحال بالنسبة إلى سائر المراكز الثقافيّة في جميع أنحاء الجزائر.

1 - دور المساجد والزوايا في المحافظة على الشخصية الوطنيّة أيام الفترة الفرنسيّة:

رغم ما كان يمارسه المستعمر الفرنسيّ على المساجد كما ذكرنا إلّا أن دورها بقي بارزا في المحافظة على الشخصية الوطنيّة ومقوماتها الإسلاميّة ضدّ المسخ الصليبيّ

1 - دراسات في التربيّة الإسلاميّة: رابح تركي ص 117.

2 - الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربيّة في الجزائر: رابح تركي، المؤسسة الوطنيّة

للكتاب الجزائر ط 4، 1984م ص 47.

3 - عيون البصائر: محمد البشير الإبراهيمي، ص 232.

الحاقّد، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكر عن العلامة أبا مروان البوني الإمام والقائد العسكريّ الذي كان حريصا على أن يكون في طليعة المجاهدين، فأتخذ مسجدا له على شاطئ عنابة يربط فيه ضدّ هجمات العدو¹.

و تذكر المصادر أن الأمير عبد القادر بن محي الدين قد أعلن جهاده ضدّ فرنسا من مسجد المبايعة في مدينة معسكر، وقام بإصدار العديد من البيانات الحماسيّة إلى الشعب الجزائريّ يدعوّه فيها إلى الدفاع عن الوطن، ومن جملة ما جاء في إحدى هذه البيانات قوله — رحمه الله —: "أيّها الجزائريّون قد أصبحتم الآن تحت رحمة روميّ يقاضيكُم روميّ ويدير شؤونكم روميّ، إنّ الروميّ قد انتهك مساجدكم وأخذ أحسن أراضيكم وأعطاهما إلى بني جنسه واشترى أعراض نسائكم.. إنّ يوم يقظتكم قد حان هلمّوا جميعا عند سماع صوتي أيّها المسلمون، إنّ الله قد وضع سيفه الملهب في يدي، وإنا جميعا سنمضي إلى الإمام ونروي حقول وطننا بدماء الكفار"².

وبعد الأمير عبد القادر حدثت ثورات شعبيّة في مختلف أنحاء الجزائر يقودها أئمة المساجد وشيوخ الزوايا.

¹ - السلك الديني في الجزائر خلال العشر سنوات واجبات وحقوق: محمد الصغير بلعلام، الأصالة ع 8 ماي جوان 1972 ص 243.

² - الحركة الوطنيّة الجزائريّة: أبو القاسم سعد الله، 41/ 2، وهذا البيان نشرته صحيفة التائمز اللندنيّة نقلا عن صحيفة الأخبار الصادرة عن الإدارة الفرنسيّة في الجزائر في 19 ماي 1846 م ص 3.

نذكر من ذلك على سبيل المثال بوبغلة، وبومعزة والمقراني وبوعمامة ولالة فاطمة نسومر، وهذه الثورات الشعبية كان منطلقها الزاوية والمسجد، فمثلاً نجد أن منطقة وهران ثارت ضد فرنسا من الزوايا تحت قيادة الطريقة الدرقاوية، كما ثارت منطقة القبائل بزعماء بوبغلة وهو أحد أبرز شيوخ الزوايا في ذلك الحين.

ولم تكد تحل سنة 1857م حتى كانت "منطقة القبائل كلها في حالة ثورة بفضل الجهود الدينية والسياسية التي بذلتها الطريقة الرحمانية¹ بزواياها ومساجدها بقيادة الزعيمة الروحية فاطمة نسومر، وعندما صار الشيخ الحداد زعيماً للطريقة الرحمانية أعلن من زاويته الجهاد الإسلامي ضد فرنسا المغتصبة، ونادى الشعب الجزائري إلى حمل السلاح ومن جملة ما قاله في تلك المناسبة "إن يوم الخلاص قد حان"².

إلا أن دور المساجد والزوايا بصفة عامة بدأ يتناقص شيئاً فشيئاً منذ نهاية القرن التاسع عشر لأن الاحتلال الفرنسي استولى على الأوقاف الإسلامية التي كانت تعتمد عليها المساجد والزوايا في أداء رسالتها التربوية والتعليمية والاجتماعية³ فأصيب المجتمع الجزائري بالركود فترة طويلة حيث ظل النشاط الفكري في جو

¹ - المصدر السابق: 2 / 52.

² - نفس المصدر: 2 / 54.

³ - التعليم القومي والشخصية الجزائرية: رابح تركي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ط 2، 1981م ص 243.

من الانكماش بين صوفيّة مخرّفة وثقافة استعماريّة مأكرة، لكن بوادر نهضة جديدة بدأت تلوح في الأفق، وخاصة منذ رجوع ابن باديس من جامع الزيتونة بتونس، بعد نيله لشهادة التحصيل وبدئه في برنامج تعليميّ إصلاحيّ في جامع سيدي لخضر للكبار مساء وفي جامع قموش للصغار نهاراً¹.

أمّا عن دور الزوايا في الجزائر أثناء الاحتلال، فمن حيث وظيفتها فقد كانت تدار من طرف شيوخ الطرق الذين جعلوها أماكن للصلاة وتحفيظ القرآن الكريم وتدرّس مختلف العلوم الشرعيّة واللغويّة والتاريخيّة والفلسفيّة²، إضافة إلى ما يقال فيها من أذكار وأوراد صوفيّة تردّد فيها أثناء الليل وأطراف النهار³.

وكما ذكر أحد الباحثين بأنّ الزوايا قد ظلت إلى سنة 1891م من أهم المراكز الرئيسيّة التي تلقى فيها الأطفال الجزائريون التعليم العربيّ الدينيّ⁴، لأنّه لم يكن لهم حظّ في مدارس العدو ومراكزه التعليميّة.

¹ - الحركة الوطنيّة الجزائريّة: أبو القاسم سعد الله، 2 / 414.

² - التعليم القومي والشخصيّة الجزائريّة: رابح تركي، ص 239.

³ - الكتابيب القرآنيّة بندرومة من 1900م إلى 1977م: عبد الرحمن بن أحمد التيجاني، ديوان المطبوعات الجامعيّة الجزائر 1983م ص 16.

⁴ - ابن باديس رائد الإصلاح والتربيّة: رابح تركي ص 132.

وبالإضافة إلى مهمة التعليم فقد كانت هذه الزوايا في ذلك الحين بمثابة مراكز للغرباء والفقراء وملجأ ومأوى للمجاهدين أيام الثورة التحريرية الكبرى، فكانت تطعمهم وتسقيهم وتمدّ لهم يد العون والمساعدة حسب الامكانيات والظروف¹.

لذلك يمكننا القول أنّه إذا لم يكن للزوايا من فضل غير فضل التعليم فإنّه يكفيها — على رغم سلباتها — ما قامت به من جهد بمحافظتها على القرآن والإسلام في هذه البلاد طيلة القرون السابقة عندما تعرّضت البلاد إلى كثير من الهزّات والنكبات، أضف إلى هذا فإنّ كثيرا من أبناء هذا الوطن المجاهدين قد تخرجوا من الزوايا أو كانوا شيوخا وأساتذة فيها.

فالأمير عبد القادر وهو العالم المجاهد كان زعيم زاوية، والشيخ الحداد وبوعمامة وغيرهم كانوا كذلك. والشيخ البشير الإبراهيمي — رحمه الله — تعلّم في زاوية سيدي ابن علي بن الشريف في شلاطة بجمال القبائل، ثم درّس قبل رحيله إلى الحجاز في زاوية سيدي الحواس جنوب سطيف²، كما تذكر المصادر أنّ الشيخ العربي التبسي — رحمه الله — كان ابن زاوية فقد ختم القرآن الكريم في زاوية خنقة سيدي ناجي، وتعلّم مبادئ اللغة العربية والشرعية الإسلامية في زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز في سينة نفطة

¹ - الكتابات القرآنية بندرومة: عبد الرحمن بن أحمد التيجاني، ص 16.

² - أعلام الإصلاح في الجزائر: محمد علي دبور، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر، ط1، 1976م/20.

جنوب تونس¹ وما ذكرته هنا من أمثلة هو غيض من فيض، فإن أمثال هؤلاء العلماء كثير ممن تخرجوا من زوايا الطرق الصوفية الصالحة التي تنتهج نهج الكتاب والسنة.

2 - دور المسجد في التعبئة الروحية ضد الاحتلال الفرنسي:

لقد كانت مساجد القطر الجزائري في كل من العاصمة وقسنطينة وتلمسان ووهران وباقي المدن الجزائرية تحمل لواء التصدي للعدوان الفرنسي بنشر العلم والتعليم والمحافظة على الدين الإسلامي بين أفراد الشعب الجزائري.

ومن المساجد التي كانت مقراً لهذه التعبئة الروحية والجهادية مساجد قسنطينة التي علم بها أستاذ الجيل العلامة عبد الحميد بن باديس؛ حيث علم - رحمه الله - في المسجد الكبير ومسجد قموش ومسجد سيدي عبد المؤمن وسيدي بومعزة ومدرسة جمعية التربية والتعليم والجامع الأخضر وسيدي فتح الله وكل هذه المساجد لا تزال قائمة إلى اليوم².

وحتى نقرب من الحقيقة أكثر نذكر شهادات حيّة لأعمال قام بها علماؤنا في المساجد في تلك الفترة والتي تعتبر تعبئة وتحضيراً لقيام ثورة الفاتح من نوفمبر المظفرة.

¹ - المصدر السابق: 1 / 20.

² - ابن باديس حياته وآثاره: عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب 1 / 114.

يقول محمد الصالح ابن عتيق: "حللت بمدينة البليدة في ربيع سنة 1954م وفور وصولي إليها شرعت في العمل وفتحت دروسا ليلية بمدرسة التهذيب وكان الإقبال عليها عظيما، وختمت دروس الوعظ والإرشاد في شهر رمضان بصلاة عيد الفطر المبارك خارج المسجد، وفي الساحة الواسعة التي يملكها السيد محي الدين بن الشرشالي وأخوه محمد، شارك في هذه الصلاة خلق كثير الأمر الذي حير الإدارة الاستعمارية واعتبرته مظاهرة غير قانونية وتجمعا مشبوها فاستدعتني لذلك وسألتني عن هذه الصلاة الجديدة على حدّ تعبيرهم، فأجبت بأنها صلاة مشروعة في الإسلام وقلت لهم: "إنّ لديكم أئمة رسميون فاسألوهم إن كانوا ينطقون"¹.

هكذا كان العلماء يخيفون الاستعمار وزبانيته بدروسهم في المساجد وتعبئتهم الروحية للجماهير والصلاة معهم في الساحات العمومية، هذه الصلاة التي كانت ترهب المحتلين حتّى اعتبروها مظاهرة غير قانونية أو تجمعا مشبوها يؤدّي إلى العصيان المدني.

وفي موقف آخر نجد الشيخ البشير الإبراهيمي — رحمه الله — يثير الهمم في نفوس الجزائريين ويهيئهم للثورة ويعبئهم للجهاد في سبيل الله من المسجد. فيقول في خطبة له ألقاها في حفل افتتاح جامع الحنايا بضواحي مدينة تلمسان عام 1950م: "لا تفرحوا

¹ - أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية والحركة الوطنية بالجزائر: محمد الصالح بن عتيق، مطبعة دحلب حسين داي الجزائر د ت ص 122.

بحياتكم هذه فإنكم أشقياء بها، وإنّ العاقل لا يرضى بهذا النوع من الحياة التي لا سعادة فيها ولا شرف، وإنّ سكوتنا عليها واطمئناننا إليها يعدّ قدحا في تعقلنا ولو كنا عقلاء حقاً لما بكينا على ميّت فارق هذه الحياة، ولا فرحنا بمولود يستقبل الحياة"¹.

ولا شكّ أنّ من يدقّ النظر في هذه الكلمات الهادئة للإبراهيمي، والتي انطلق صداها من المسجد يدرك مدى ما تحمله من معنى وإحياء بالثورة على العدو ودكّ حصونه ورفض حياة الذلّ والمهانة.

وموقف آخر لرجال المساجد في كيفية تعبئتهم لجماهير الشعب الجزائريّ المسلم إبان الاحتلال ننقله عن العالم المجاهد والشهيد العربي التبسي - رحمه الله - عندما انتقل إلى بلدة سيق بعمالة وهران وكانت هذه المنطقة ترزح تحت أعباء الطرقيّة المخرّفة، وكان طلبتها وفقهاؤها ينزّون العلماء المصلحين بجهلهم للدين وأحكام الفقه وأنّهم رجال أوتوا ذلاقة اللسان والسفسطة²، ولكن لما بدأ الشيخ في إلقاء دروسه بالمسجد تغيّرت وجهة نظر الطلبة إليه فصاروا من مريديه بعد أن كانوا من مزدرية.

¹ - أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية: محمد الصالح بن عتيق، ص 194.

² - المصدر السابق: ص 201.

ولما كان الشيخ ينبري إلى مهاجمة البدع والخرافات المنتشرة في ربوع تلك المناطق استدعاه الحاكم الفرنسي وقابله بعنف قائلاً له: "أنت تحارب الزوايا وأهلها ألا تعلم أنهم أحباب فرنسا؟ فقال الشيخ العربي التبسي - رحمه الله - : نعم أعلم هذا ولكن لا أعلم من هم أعداؤها، ألا تجني يا حضرة المتصرف؟ فنظر إليه الحاكم الفرنسي وقد أدركه العجز والخل ثم قال له: أنصحك أن تكفّ عن الحديث عن الزوايا وأصحابها وإلا فستضطربنا إلى اتخاذ إجراءات ضدك، وخير لك أن ترحل عن هذا البلد¹.

وإن كان الشيخ التبسي قد مات فإن الفكر المسجدي الثوري لا يموت ولا ينمحي لأنه لو سلك العلماء سبيلا غير هذه الفكرة التي بثوها في نفوس مواطنيهم لما قامت فيما بعد ثورة الفاتح من نوفمبر 1954م والتي كانت ترجمة عملية لفكرة العلماء العربية الإسلامية².

لذا فإن هناك من الباحثين³ من أكد على أن حركة ابن باديس التربوية والإصلاحية السلفية هي الأب الشرعي للثورة الجزائرية الكبرى لأن الأولى - جمعية

¹ - نفس المصدر: ص 201.

² - ابن باديس حياته وآثاره: عمار طالي، 1 / 120.

³ - الاتجاه العربي الإسلامي ودوره في تحرير الجزائر: نبيل أحمد بلاسي، ص 128.

العلماء — حرّرت فكر الإنسان الجزائريّ من الجهل والخرافة، والثائفة — ثورة التحرير — حرّرت أرض الإنسان الجزائريّ من الظلم والطغيان.

ومّا تجدر الإشارة إليه أنّه قد تخرّج من هذه المؤسسات العديد من العلماء والدعاة من كوادر جمعية العلماء في مختلف أرجاء شمال الوطن سواء المشهور منهم أو المغمور، كما اشتهر غيرهم أمثال: الشيخ إبراهيم بيوض والشيخ أبو اليقظان والشيخ إبراهيم أطفيش والشيخ محمد الثميني والشيخ عبد الرحمن بكلي والشيخ سليمان بن حاج داود، والشيخ عدون بن بلحاج وغيرهم من العلماء وأنصارهم أركان النهضة والإصلاح في الجنوب الجزائريّ.

3 - دور المسجد في الحرب التحريرية الكبرى:

إنّ دور المسجد في الحرب التحريرية الكبرى كان كبيراً ومتميّزاً حيث أنّه ترك بصماته الواضحة في توجيه الثورة ورسم معالمها، لأنّ المساجد الحرّة صارت أيام الثورة بمثابة قلاع للجهاد في سبيل الله من أجل تحرير الوطن الجزائريّ¹.

والمتبّع لمسار الثورة عند قيامها والمدقّق في شعاراتها ومبادئها يدرك ما لأثر المسجد وتوجيهاته فيها، حيث كان المجاهدون لا يتوقّفون عن ترديد شعار الثورة

¹ - دراسات في التربية الإسلامية: رابح تركي ص 114.

الدائم "الجهاد في سبيل الله" "الله أكبر" بلا انقطاع وفي كل معركة، أما كلمتها السريّة فهي: عقبة وخالد...¹.

وإذا كان صحيحاً أنّ المسجد لم يكن ثكنة عسكرية أيام الثورة ولا مكاناً لتدريب المجاهدين، إلاّ أنّه شارك في الثورة من بابها الواسع، وذلك بالدعاية لها ونشرها فكان بمثابة قناة إعلامية هامة تحظى باهتمام كلّ الشعب الجزائري، وثقته في تبليغ أخبار الجهاد وانتصار المجاهدين عن طريق رجاله الذين كانوا يحثّون الناس على الجهاد في سبيل الله والتضحية في سبيل نجاح الثورة وانتصارها، حيث يذكر الشيخ العيد مطروح أحد تلاميذ الشيخ العربي التبسي أنّ أستاذه العربي — رحمه الله — كان يلقي دروساً قويّة في مسجد بلكور الكبير بالجزائر العاصمة، فما كان من المستعمرين إلاّ أن استدعوه للمفاوضات سنة 1957م لكنّه رفض وقال لهم: "اذهبوا للتفاوض مع المجاهدين في الجبال"² ممّا جعل عساكر الاحتلال يزدادون حنقا عليه ويشدّدون الخناق أكثر فأكثر، ولكن الشيخ — رحمه الله — استأنف دروسه في المسجد وخاصة درس التفسير الذي كان يقدّمه للعامة والخاصة في المسجد المذكور، فعظم إقبال الناس على دروسه حتّى غصّ بهم المسجد رغم ظروف الحرب التي تجعل التنقّل في أنحاء العاصمة صعباً وخاصة في حي بلكور، لكثرة الحوادث التي تقع فيه.

¹ - الثورة الجزائرية: مصطفى طلاس، بسام العسلي، طلاس للدراسات والنشر دمشق 1984م ص

100، 107.

² - أعلام الإصلاح في الجزائر: محمد علي دبور، 2 / 70.

وإلى جانب هذا استمر العمل الجاد من طرف بعض أئمة المساجد الحرة وبعض الزوايا التي لم تسيطر عليها سلطات الاحتلال، فقاموا بنشر تعاليم الدين الصحيحة وبمهمة التوجيه والقيادة الفكرية بل والعسكرية للمواطنين وتعليم النشء القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة واللغة العربية وتاريخ الإسلام وحضارته¹، ليس هذا فقط بل إن بعض المعلمين الأحرار وأئمة المساجد ومنهم إمام جامع عمروسة ومدير مدرستها عثروا على كميات وافرة من الأسلحة التي تحصل عليها الشعب الجزائري من الجنود الأمريكيين أيام دخولهم إلى الجزائر واحتفظوا بها في أماكن خفية، بعيدة عن الأنظار واستطاعوا أن ينقلوها في ظلام الليل إلى أماكنها².

هكذا أدى المسجد دوره أيام الثورة التحريرية وخاصة المساجد الموجودة في القرى والأرياف والمداشر البعيدة عن أعين الاستعمار، تلك المساجد والمصليات الصغيرة المبنية بلبشات الطوب والطين والمغطاة بالقش والديس والتي شهدت العديد من لقاءات رجال الثورة بعامة الشعب لتبليغهم تعليمات وأوامر القيادة العليا للثورة وذلك عن طريق أئمة المساجد في الأرياف والذين كانوا يتقاضون أجورهم من الثورة³.

¹ - السلك الديني في الجزائر: محمد الصغير بعلام، مجلة الأصالة ع 8 السنة 2 ص 245.

² - أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية: محمد الصالح بن عتيق، ص 124.

³ - الجانب الروحي لثورة التحرير: يوسف يعلاوي، مجلة الأصالة عدد خاص بالذكرى العشرون لثورة التحرير، نوفمبر ديسمبر 1974م السنة 3 ع 22 ص 89.

ومن بين تلك الاجتماعات التي جمعت المجاهدين في المساجد ذلك الاجتماع التاريخي الذي ضمّ 500 مجاهد في مدينة شمورا بمنطقة الأوراس بمناسبة عيد المولد النبوي الشريف في شتاء عام 1951م وقد حضر ذلك الاجتماع المسجدي أبرز قادة الثورة في تلك الفترة منهم رابح بيطاط، الأخضر بن طوبال، ومصطفى بن بولعيد وغيرهم من المجاهدين، فكان المسجد هو أهم أداة لتوحيد عناصر الثورة حيث شمل المجاهدين من شتى نواحي القطر، إذ كان بينهم ابن القرية وابن المدينة، الفقير والغني ولكنهم على قلب رجل واحد، لذلك لم يكن الاستعمار يغفل عن مثل هذه الاجتماعات فكان كلما شكّ في خطورة مكان من هذه الأمكنة إلّا ودمره.

4 - التربيّة المسجديّة لجيش التحرير:

لقد اهتمّ علماء الإصلاح في المساجد إبان الثورة التحريرية بالتربيّة الروحية للمجاهدين وعامة الشعب، حيث كانوا على اتصال دائم بقادة الثورة وحاملي السلاح من المجاهدين يربوهم التربيّة المسجديّة ويعلموهم حقوق الله وحقوق العباد، ويلهموهم الخير والصواب.

ومن هؤلاء العلماء المسجدين الشيخ العربي التبسي الذي كان شديد الاهتمام بالثورة يتتبع سيرها ويتّصل بكثير من قادتها في الجبال والمدن وممن كان وثيق الصلة به الشهيد القائد عميروش — رحمه الله — الذي كان يعدّ الشيخ التبسي وأعلام الإصلاح من مشايخه حيث أرسل رسوله من جبال القبائل إلى الشيخ العربي وهو في الجزائر العاصمة يخبره بأنباء الجهاد ويسأله وصيّة يتّبعها

في جهاده فبعث له الشيخ بمصحف صغير وقال لرسول القائد قل له: هذا المصحف الشريف هو وصيّتي له.

بالإضافة إلى هذا كان بعض قادة الثورة — ومنهم العقيد عميروش — على اهتمام بالغ بالجانب التربوي والتعليمي للجنود إذ طلب من أحمد حماني — بصفته نائب الأمين العام لجمعية العلماء في شرق الجزائر — معاونته في إرسال المعلمين لبث الوعي الديني والسياسي بين المجاهدين، وقد وصل حدّ التفاني هؤلاء المعلمين إلى نشر رسالتهم الدينية والثقافية حتّى بين المساجين داخل السجون والمعتقلات التي اعتقلوا فيها¹.

والملاحظ لهذه الشهادة يدرك تمام الإدراك كيف كان المجاهدون يتصفون بهذه التربية المسجدية الروحية والعلمية، التي لم ينسوها أو يغفلوها حتّى داخل السجون. ويحدّثنا شاهد عيان عن الحياة في المعتقلات قائلا: "لقد كان التعليم يتصدّر أهمّ أعمال المعتقلين ويأخذ جزءا كبيرا من أوقاتهم، ويتناول في الطليعة تعليم اللغة

¹ - الاتجاه العربي الإسلامي ودوره في تحرير الجزائر: نبيل أحمد بلاسي، ص 139، وهذا الكلام من حديث خاص للمؤلف مع الشيخ أحمد حماني رحمه الله الذي كان نائب الكاتب العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ذلك الوقت، زاره المؤلف في منزله بالعاصمة يوم الخميس 3 يونيو 1977 م، وقد اتصلت بالشيخ للتأكد من هذا الكلام فأقرّه ووافق عليه.

العربية من نحو وصرف وبلاغة وأدب وتاريخ ودين ويأتي بعدها اللغات الأجنبية، فاستطاعوا بذلك أن يحولوا هذه المعتقلات إلى مراكز ثقافية ومعاهد علمية.

ليس هذا فقط، بل لقد برزت التربية المسجدية بشكل واضح عند المجاهدين في الجبال حيث كانت تفتح أغلب جلساتهم باسم الله، والحمد لله ثم باسم جيش وجبهة التحرير بالإضافة إلى ذلك أنشأت مصلحة قضائية دينية تابعة لجيش التحرير في أغلب الولايات تارة تحمل اسم مصلحة الأوقاف، وتارة مصلحة القضاء، وهي التي تقوم بحل القضايا الدينية والاجتماعية وتنظيم التعليم العربي الحر والوعظ والإرشاد¹.

كما كان المجاهدون أثناء الثورة يلتزمون بالشعائر الإسلامية وخاصة الصلاة، حيث راعت القيادة العسكرية بأن يؤدي جنودها هذه الفريضة واعتبرت الذين يتخلفون عن أدائها أنهم مجاهدون ناقصو الإيمان².

¹ - الجانب الروحي لثورة التحرير: يوسف يعلاوي، الأصالة مرجع سابق ص 88.

² - الاتجاه العربي الإسلامي ودوره في تحرير الجزائر: نبيل أحمد بلاسي، ص 164 حديث خاص أجراه المؤلف مع الكولونيل الحاج لخضر قائد الولاية الأولى ابتداء من سنة 1956م إلى نهاية الثورة.

ويمكن أن نستشفّ الروح الدينيّة لدى المجاهدين من خلال خطب البعض منهم أثناء المعارك والتي كانت تطفح إيماناً وتفيض يقيناً بالله ﷻ ونصره للمؤمنين، يقول عباس لغرور - رحمه الله - في خطبة له ليلة أوّل نوفمبر 1954م: إخواني المجاهدين الأعزاء: ها نحن قد أدركنا يوم الثورة العظيم الذي يجب أن يقود الجزائر إلى الاستقلال إنّي أعرف بأننا سنحابه العدو وأيدينا فارغة عملياً وليس لدينا إلاّ الإيمان الذي يعمّر قلوبنا غير أنّ ما نعتمد عليه في هذه الليلة التاريخيّة، هو إشعال الفتيل المفجّر للثورة، وإنّي على ثقة تامّة بأنّ الشعب الجزائريّ بكامله سيّتبّع مسيرتنا على هذا الدرب ... إلى أن يقول - رحمه الله -: انطلقوا واضربوا العدوّ بقوة وبدون أدنى شفقة أو رحمة وعودوا ظافرين، ذلك لأنّ الله مع المجاهدين ومع القضية العادلة، الله أكبر¹.

ورغم كلّ هذا فإنّ المجاهدين ليسوا في درجة واحدة من البر والتقوى؛ لأنّ ما ينطبق على المؤمنين عامة ينطبق على المجاهدين أيّام الثورة، فهناك منهم المؤمن قوي الإيمان، وهناك ضعيف الإيمان وهناك من هو في مرتبة بين ذلك.

¹ - الثورة الجزائرية: مصطفى طلاس، بسام العسلي ص 103.

فكما وجد بين المجاهدين من يتخلف عن أداء الصلاة في أوقاتها، وجد منهم من يصلي في ميدان المعركة، فقد كانت فرقة من الجيش تؤدي الصلاة والفرقة الأخرى تحرسها وهذا طبقا لما جاء في باب صلاة الخوف والحرب وهي مبسطة في كتب الفقه وقد استوحاها المجاهدون من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: 104].

وقد تأكد لي هذا الأمر من خلال ذكريات البعض ممن عاشوا أيام الثورة المسلحة حيث ذكروا بأن هناك من المجاهدين من لم تكن تفوته لا صلاة ولا صيام إلا في أندر الأوقات.

الخلاصة:

ومما سبق يمكن لنا أن نستنتج أن هذه التربية الروحية والأخلاقية لأفراد جيش التحرير الوطني أيام الثورة التحريرية ما هي إلا نتاج لما قامت به

المساجد الحرّة التي بناها الشعب الجزائريّ فيما بين الحربين العالميتين حيث كانت منارة للتّوعية السياسيّة والوطنية ومقاومة سياسة الفرنسة والتنصير والإندماج¹ التي حاولت فرنسا أن تفرضها على الجزائريّين إلّا أنّ آمالها ذهبت أدراج الرياح. والله ولي التوفيق.

¹ - دراسات في التّربية الإسلاميّة: رابع تركي ص 114.